لقـاء

في ليل الشتاء القار يحلو الدفء والنوم .. وفي تلك الحارة الضيقة تشتد حلكة الليل .. وقد تلاشت أصوات الأحياء .. حتى الكلاب أغراها السكون فعفت نفسها من الحراسة .. واستسلمت لسبات عميق .

الناس يغطون في النعاس .. الا هو ! .. الشرفات والنوافذ جميعها مغلقة .. الا نافذة حجرته .. فقد وقف يطل منها الى صفحة السماء الصافية .. ينصت الى أنفاسه التي تتردد في بطء .. بين سبابته ووسطاه سيجارة تروح وتغدو بين الظلام في حركة سريعة متتالية .. تحرق نفسها ! .. وما تلبث أن تهوى في الفضاء .. والحجرة تفعمها رائحة دخان خانقة .. ثقيلة لا تربحها نسمات الهواء .. فقد تشبعت بها قطع الأثاث فغدت تنبعث منها ..

استمر يحملق في النجوم .. كأنما يبثها لواعجه .. فاغر الفم .. والأفكار تتلاحق في ذهنه .. وتبدو لمخيلته عقيمة متخبطة

.. ودع النافذة .. فتح المصباح فبدا الضوء شاحبا .. تهالك على فراشه .. من خلال سحب الدخان جعل يتأمل بقايا سجائره وقد تكدست فى المطفأة .. ضغط رأسه بكلتا يديه بينما تأوه .. .. وقف .. خطا بضع خطوات .. جعـــل يتأمل الحجرة .. الحيطان صماء جامدة .. هائلة كالمردة .. الســـقف يموج يكاد **أن ينطبق فوق رأسه .. :**

ـ كيف أحطم الزنزانة ؟ .. كيف أبرح الســـجن الذى اخترته ونصبت قضبانه .. كيف ؟

نبش السكون صياح طفلته .. وصوت زوجته تهدهدها .. وسرعان ما عاد السكون .. خطا فى تثاقل .. لمح وجهه فى المرآة .. دنا منه .. تأمله مستغربا : ـ أهذا وجهى ؟ !

اســتطرد يتــأمل ملامحــه .. حفرتى عينيه الغائرتين .. تحوطهما هالتان سمراوتان .. تنيات وخطوط تشابكت وانتشرت فى وجهه .. **كتم صرخة فخرجت أنينا :**

ـ كيف أحتمل ؟ ! .. كيف أواصل ؟

عيناه تتسعان وتبرقان .. رقبته تتشنج .. كتفاه يرتعشان .. حدقتاه تتراقصان .. صوت فى أعماقه يزعق .. أنصت .. نفسه تتشدق وتصرخ .. كله آذان صاغية .. أصابه الذهول .. بهتت كل الأفكار الا هذه الفكرة .. وضح الشىء جليا .. لمع فى مقلتيه .. سيطر واستبد .. زال الذهول لتنفرج شـــفتاه عن ابتسامة بلهاء .. اتسعت فملأت وجهه .. هبت ريح نفشت شعره فبدا كسكير .. أو مخبول .. حدق فى الأشياء من حوله .. كلها تتلون باللون الأحمر .. السماء تبدو داكنة الاحمرار .. النجوم عيون تجمدت نظراتها من شدة الهول .. السماء تقطر دما يفرش

الدنيـا .. تقلصت عضـلاته .. زم شـفتيه .. **خـرج صـوته محشرجا :** سأقتلها ..

جعل يردد هذا القرار .. وكأنما استساغ طعمه اللاذع .. اللاسع ..

أيام ثلاثة قضاها بين الصمت والوجوم .. فى الليل يجتهد فى لم شتات فكره بلا جدوى يدور رأسه ويدور .. وتنكمش الأفكار بتسلل خيوط النهار .. تطارده نظرات زوجته النفاذة .. تزلزله ابتساماتها الباردة .. يفقد اتزانه وتوازنه .. وطفلته بوحدانها تحس بما يدور .. عقلها الصغير يجتهد أن يدرك .. يصطدم بعملاق أسود تختبئ خلفه الأسرار .. عندئذ تشـعر برغبتها فى البكاء .. وكلما غرق فى بياض النهار يشـعر بيد تضغط عنقه .. النهار يفضحه ويميط اللثام عن وجهه .. ويلحق بعقله الخمول .. فلا يقدر الا ليهرب الى حجرته .. ويغلق بابها .. وكم يتعذب حين يشعر بالعيون تطارده ..

فلا يقدر الا أن يواجهها بنظرة .. أيضا بلهاء :

ـ ما زال فى الليل شوط كبير .. لن يأتى النهار الموحش حتى أنفذ فكرتى .. سأقتلها .. وأعيش لنفسى التى أضنيتها .. كم طالت ساعات السجن المروعة .. لأحطم السجن وأفر .. ولن أعود ..

أنى الى سمعه أزيز فراش زوجته .. أصاخ السمع وقلبه يتقافز .. لم تبك الصغيرة هذه المرة .. الدقائق تمر سريعة .. لم يبق من الليل الا هزيعه الأخير .. سكتت الأصوات ولم يسمع الا دقات قلبه .. الشيطان يناديه .. ونفسه تدفعه .. وها هى معشوقته يخاليا تبتسم مشجعة .. وها هى يداها تجذبه الى خارج

الحجرة .. مشى كالمسحور .. الشيطان يحذره أن يتلمس الأرض بأطراف أصابعه .. خطوة بعد أخرى .. خطوات كثيرة كأنها أميال .. وما زال بعيدا عن مأربه .. تطلع الى حجرة زوجته مسرح جريمته .. نظرات زوجته الباردة تخترق الباب .. صرت أنيابه .. التفت الى المطبخ .. عرج اليه .. لم يبحث عن السكين التى تلمع أمام بصره .. أمسك بمقبضها .. لوحها .. قربها لأنفه .. اشتم رائحة البصل .. واشتم رائحة أخرى أثارته .. حدج السكين باعجاب .. دسها فى صدره .. مرق من الصالة وقلبه يرتج .. الدماء تتدفق الى رأسه .. وقف أمام باب المسرح .. فتحه بخفة الشيطان .. خطا بيسراه الى الداخل .. نظر خلفه .. الشيطان مازال يحثه .. يدا عشيقته تدفعانه لأن يقدم .. وقف أمام الفراش .. حاول أن يبتلع لعابه فلم يستطع .. فقد جف حلقه .. على الضوء الخافت رأى وجهيهما متلاصقين .. أخال بأنهما يغيظان له .. غلى الدم فى عروقه واندفع فى يديه فارتفعت يمناه .. كاد أن يستل السكين .. فكر برهة .. عدل حرفا فى خطته .. فليكن المسرح حجرته .. زحفت يداه نحو صغيرته بينما عيناه على زوجته .. ثلجت أطرافه وقلبه .. أمسك بكتفى وحيدته .. اجتذبها من تحت ذراع أمها .. خلص يدها العالقة بكتفها .. أصبحت بين يديه .. نظر تجاه الباب المفتوح .. الشيطان وعشيقته يبتسمان له .. ألقى نظرة الى زوجته .. انها غارقة فى الأحلام .. قفز الى الباب .. خرج .. هرول كالثعلب الى المسرح الجديد .. **ألقى ابنته على فراشه .. رنا اليها فى حنق وتمتم :**

ـ هذه هى الحائل .. لقد رفضتنى فى اصرار .. وعيناها تفيض بالحب .. نعم انها تحبنى ..

أذن ديك وأجابه آخرون .. استمرت كأنها لم تنته ..

اشتد غيظه ·· تحركت الطفلة ·· اشتد صياح الديكة فصمت ·· **اهتاجت كوامنه وشبت فى جسده النيران :**

ـ كنت أريدها نائمة ··

نظرت الصغيرة من حولها ·· أوشكت على البكاء ربت على صـــدرها بيـده المرتعشـة ·· الديكة تملأ الدنيـــا زعيقا ·· **قام ليغلق النافذة فاصطكت فأودعت الرعب فى قلبه :**

ـ كان عمر الحب قصيرا ·· ومع ذلك قد بلغ ذروته ·· حكينا وحكينا ·· وقبلتى لها ·· يا لها من قبلة ·· كانت ساحرة المذاق ·· كم تعبث فى نيلها ····· الصغيرة تفرك عينيها وتسأل عن أمهـا :

ـ لكنها ·· لكنها أبعدتنى ·· وأشاحت بوجهها عنى ·· **وبكت فى لوعة ·**

الطفلة تردد فى رهبة :

ـ أين ماما ·· أين ماما يا بابا ؟!

ـ طلبت أخرى واشتد الحاحى ·· رفضت بشدة ·· لامتنى ·· وكادت أن تقرعنى ·

أضافت الصغيرة ورنتى الخوف والدهشة فى صـــوتها :

ـ أين ماما يا بابا ؟!

نظر اليها بينما استطرد :

ـ لا أستطيع العيش بدونها ·· وهى كذلك ·· هى على حق حين رفضتنى ·· سأمحو السبب ·· سأعيش من أجل سعادتى ··ولتنزوى حياة الآخرين ·

هتفت الصغيرة بصوت غريب :

ـ ماذا تقول يا بابا ؟!!

دس يده فى صدره ·· أمسكت يده مقبض السكين :

ـ طعنة واحدة ·· طعنة خفيفة تكفى ·· انها ·· انها طفلة ·

ـ أنا لا أسمع شيئا ·· لا أفهم ما تقول ! ·· أين ماما ؟ ·· وضع اصبعه على حافة السكين قائلا :

ـ سأريها لك ·· ولا تخافى منها ··

ـ أنا لا أخاف من ماما ·· انها تحبنى ·· ماما لطيفة ··

ـ كيف أريها السكين ·· أو أرفعها أمام عينيها ·· ستخاف منى ·· لا ·· لا أريد أن أخيفها ·· بل أود قتلها ·· أتخلص من وجودها ·· أو ·· أو أطعنها من الخلف ·· لكن ··

صاحت الطفلة : ـ لم ترتعش يا بابا ؟ ·· ماذا تقول ؟! ·· اننى لا أفهم كلمة واحدة !!

ـ لا ·· بل سأخنقها ·· هذا أفضل ·· انها لفكرة صائبة ·· ولن ·· لن تخاف يداى ··

ـ أتريد حلوى يا بابا ؟ ·· هـ ·· هل أنت جائع فأعد لك الطعام ·· ماذا تريد ·· لم ·· لم لا تجيب ؟ !

صاحت الطفلة وقد أوشكت على البكاء :

ـ سأذهب الى مـامـا ·· اننى أخاف منك ·· أنت شكل « البعبع » ·· لم أنت غاضب ·· اضحك يا بابا ! !

دنت الصغيرة منه وجعلت تداعبه .. أحاط عنقها الصغير بيديه الكبيرتين .. لهثت أنفاسه .. ظنت أنه سيقبلها فسلمته خدها .. تأمل عينيها البريئتين الصافيتين .. الدموع تتلألأ فيها .. ابتسامة تضيء وجهها .. شعر بخدر يصيب يديه .. ووهن فى كل أعضائه .. حاول أن يضغط على عنقها .. لم يقو .. علته الدهشة .. تبدلت أساريره رويدا .. غشيت عينيه عبرتان .. ولم يسعه الا أن يجتذبها نحوه ويضمها الى صدره .. تطايرت الدموع على خد الطفلة .. علا بكاءه .. سألته الصغيرة فى تأثر بالغ : ــ لم تبكى يا بابا ؟ !

فى هذه اللحظة دخلت الأم وابتسامة تتراقص فى عينيها .. نفس الابتسامة .. ولكن هذه المرة لم يشعر ببرودتها .. اندفعت اليهما تبكى وكذا بكت الصغيرة تأثرا .. رفع الزوج وجه زوجته .. والتقت نظراتهم بعد غياب طويل .. وبمعنى جديد ..

كانت خيوط الصباح قد تسللت الى الحجرة .. فى خفة ودلال قامت الزوجة .. فتحت النافذة لتمتلىء الحجرة بالضياء .. تصاعدت رائحة الدخان الثقيلة الخانقة .. هبت نسمة رقيقة لتنشر رائحة جميلة .. وجاء الى سمعهم غناء الأطيار .. وارتسمت أروع ابتسامة على محيا الصغيرة .